د.جلامة عبد الوحيد.

م2: الممالك البربرية بالمغرب القديم.

-من هم البربر؟

أولا التعريف بالبربر:

أصل التسمية: هناك العديد من الروايات حول أصل البربر وأصل التسمية منها:

1-الرواية الأولى:

يرجع أصل كلمة "بربر" إلى مصدرها اليوناني "varvaros" (فارفاروس) التي تعني اللغط والكلام غير المفهوم؛ إذ أطلقوا هذه الصف على الشعوب التي لا تتكلم لغتهم.

وبعد انتقال موازين القوة إلى الرومان استعاروا الكلمة من اليونانيين وأطلقوا بدورهم كلمة "بربر" أو "البرابرة" على كل الشعوب والقبائل الخارجة عن نفوذهم.

2-الرواية الثانية:

أرجع عدة مؤرخين عرب مدلول كلمة "بربر" إلى الأصل العربي؛ حيث أرجعوها إلى "بر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار".

3-الرواية الثالثة:

يزعم أصحاب هذه أن الملك "النعمان بن حمير بن سبأ"، أنه أمر أبنائه بتعمير بلاد المغرب، فهاجر هؤلاء إليها من سلالتهم عديد القبائل البربرية منها:

لمطة	لمت	مسفو	أصناك	مرطا
قبيلة لمطة	قبيلة لموتة	قبيل مسوفة	قبيلة صنهاجة	قبيلة هكسورة

4-الرواية الرابعة (رواية الهجرة):

تذكر هذه الرواية؛ أن ملك من التبابعة يسمى "إفريقش بن صيفي"؛ قام بغزو بلاد المغرب فسميت بإفريقا، ويذكر أنه أول من استعمل كلمة "بربر"، عندما حل بالبلاد لم يفهم لغة السكان فصرح قائلا "ما أكثر بربرتكم".

وهذا ما يفسره "ابن منظور" في كتابه "لسان العرب" (البربري كثير الكلام بلا منفعة، بربرة تعني ثرثرة).

5–الرواية الخامسة:

أن أصلهم من ولد حام؛ إذ يرجع نسبهم إلى اليمن وشبه الجزيرة العربية، ما ذكره البكري والمسعودي وابن خلدون.

6–الرواية السادسة:

الكتاب الغربيين ذكروا أن أصلهم أوروبي؛ حيث استندوا إلى الخصائص البشرية كالبياض القوقازي وكثافة الشعر.

تمهيد:

لم يهتم المؤرخون القدامى بشؤون الممالك البربرية؛ باستثناء بعض الإشارات الباهتة لأسماء بعض ملوك البربر –دون وصف لهم أو لممالكهم– في سياق الحديث عن تاريخ قرطاج أو تاريخ روما، لهذا كانت معرفتنا بهذه الممالك خاصة في بداياتها ضعيفة جدا، خاصة وأن الآثار لم تساعدنا في هذا الأمر أيضا.

وعلى كل حال كان نشوء هذه الممالك ذا طابع قبلي محض، حيث كانت القبائل البربرية المتجاورة جغرافيا تتحد في أحلاف قبيلة كبيرة من أجل مواجهة أو الهجوم على عدو مشترك– كما حدث مع القبائل البربرية الغازية لبلاد النيل الفرعونية– وكان هذا الحلف القبلي في الغالب يشكل "مجلس شيوخ قبلي"؛ يوضع على رأسه قائد يتولى حكمه على أساس الشورى القبلية وينتهي هذا الحلف بانتهاء المصالح المشتركة، لذا يرى بعض المؤرخون أن أعمار هذه التحالفات لم تكن طويلة باستثناء بعض التحالفات القائمة بين مجموعة من القبائل المشتركة في وحدة جغرافية مشتركة أو تتكلم لهجة واحدة؛ وبسبب طول المدة الزمنية لهذا التحالف القبلي، ظهرت نواة بعض "الممالك البربرية" ذات فروع قبلية بقيادة رئيس قبلي قوي تدعمه ربما السلطة الدينية.

وقد ذكرت لنا المصادر عددا من أسماء القبائل الموسعة (دولة القبيلة) حتى وإن اختلفت أحيانا في أصولها، فقد ذكر "هيرودوت"بعض هذه الأّحلاف الكبرى الممتدة من الناحية الليبية حتى الناحية التونسية؛ ومن بينها ما يلي: النازاموس، الماسيليس، الجندنيس، اللوتوفاجيس، الماسيليس، الأوزيس.

والجدير بالذكر أن هذه القبائل؛ انتقلت من تجمع الأحلاف إلى تجمع الممالك (دولة القبيلة)، غير أن هذا الانتقال ليس لنا فيه تاريخ يذكر لبدئه وإن كانت المصادر تشير إلى وجود "ممالك ببربرية"؛ منذ عهد الأميرة "عليسة ديدون" أي حوالي نهاية القرن التاسع قبل الميلاد أي سنة 814 ق.م؛ حيث ورد اسم الملك البربري " ياريباس أو إيهرباس" ثم تتالى ذكر أسماء لبعض الممالك البربرية الكبرى خصوصا مع بداية التأريخ لفترة الحروب البونيقية؛ وإذا سلمنا بصحة رواية الملك "هيمبصال"، فبداية ظهور هذه الممالك كان غربا، وفي الفترة القرطاجية تواجدت ثلاثة ممالك كبرى ببلاد المغرب القديم وهي كالآتي:

أ–المملكة المورية (مملكة موريطانيا):

كان يسمي أهلها الإغريق و اللاتين بـ:"المورزيين" (Maurusii) و "الماوري" (Mauri) وكذا سماهم البربر أنفسهم، كما اختلف في أصل هذه التسمية ففي رواية الملك "هيمبصال" أنهم هم "الميديون" النازلون مع القائد "هرقل أو هركول" والذين تحول اسمهم على لسان البربر إلى الموري.

أصبحت هذه المملكة تعرف عند الإغريق بـ:"موريطانيا"، ويبدوا أن هذه المملكة قد ظهرت منذ القرن الرابع قبل الميلاد وربما قبل ذلك !؟، وكانت تقع غربا؛ فامتدت من المحيط الأطلسي غربا إلى واد ملوية شرقا (المغرب الأقصى حاليا) الذي كان حدا فاصلا بينها وبين بلاد النوميد، دون أن تتوغل كثيرا إلى الداخل –بسبب تواجد القبائل الجيتولية القوية في الجنوب–، أما فيما يخص أحوال هذه المملكة وملوكها فلا نعرف عنها سوى شيء قليل؛ فالمصادر سكتت ولم تعطينا سوى حدودها ولم تذكر أسماء ملوكها إلا في نهاية القرن الثالث والثاني قبل الميلاد؛ حيث ذكرت المصادر اسم ملكها "باغا" الذي أعان الملك النوميدي "ماسينسان" ثم فيما بعد زمن حرب "يوغرطه" ذكرت المصادر اسم أخر لملوك هذه المملكة وهو الملك "بوخوس" (صهر يوغرطه).

ب–الممالك النوميدية:

تميز كلمة "النوميد" أجناس من البربر؛ استعملها المؤرخ "بولبيوس"–ظهرت في القرن الخامس ميلادي– وكان هذا الاسم علما على كل رجال القبائل البربرية في بلاد المغرب القديم، ثم انكمش معناه؛ فأصبح علما على بربر المنطقة الوسطى من المغرب القديم –بين قرطاجة والموريين–، ثم ازداد هذا الاسم انكماشا في العهد الروماني؛ بسبب التوسع الإقليمي لموريتانيا (أصل الكلمة إغريقي)، فالاسم علم وصفي أكثر منه علم نسبي أو قبلي.

لقد تأسست مملكتان كبيرتان بالبلاد النوميدية، بفضل الأحلاف القبلية منذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وبما قبله، وهما: مملكتا "الماسيسيل" و "الماسيل"(الكلمتان بربريتان الأصل).

1– مملكة الماسيسيل:

امتدت أراضيها من نهر ملوية غربا إلى رأس بوقرون (أو رأس تريتون Cap Triton)شمال مدينة سيرتا شرقا، وكانت في البداية "سيغا"–التي توجد أثارها غرب مصب نهر التافنة غرب مدينة بني صاف حاليا–؛ وخلال الحرب البونيقية الثانية كان يحكمها "الملك سفاقص"–الذي لا نعرف عن بداية حكمه شيئا والمرجح أنه كان حوالي مطلع سنة 216 ق.م وقد قام هذا الأخير بشن حرب على ملوك "ماسيليا" وتحالف مع قرطاجة، فوسع حدود مملكته على حساب جيرانه في الشرق؛ حيث استولى على مدينة "سيرتا" والتي اتخذها عاصمة ثانية لمملكته الواسعة التي أصبحت تشمل كل الأراضي الواقعة ما بين "نهر ملوية" في الغرب وصولا

إلى مدينة "سيرتا" في الشرق (وهذه الأراضي تمتاز بخصوبتها العالية) ويذكر "سترابون": أن هذه المملكة والتي تعادل المغرب الشرقي وثلثي الجزائر؛ كانت غنية جدا حتى أنها مولت المنطقة وغيرها بالفضة والجلود .

وبقي الملك "سفاقص" في الحكم إلى غاية سنة 203 ق.م؛ حيث انهارت سلطته مرة واحدة وذلك لما انهزمت قواته وقوات القرطاجيين أمام الملك "ماسنيسان" الذي تحالف مع الرومان فقتل "صفاكس" وبعد موته بقي ابنه "ورمينا" الذي كان يشاركه في الحكم بحكم جزء صغير جدا من هذه المملكة في الغرب قبل أن يضمها "ماسنيسان" إلى مملكته.

2-مملكة الماسيل:

كانت هذه المملكة في البداية أقل مساحة من المملكتين السابقتين؛ حيث كانت تشمل الجزء الشرقي من مدينة "سيرتا" وكان يحكمها أيام الحرب البونيقية الثانية الملك "غايا"، الذي تولى السلطة مابين 216 أو 214 ق.م، ففي سنة 213ق.م اندلعت حربا بين قواته وجيش الملك "صفاكس"الذي أراد التوسع على حساب مملكة "ماسيليا"؛ فتحالف "غايا" مع قرطاجة من أجل الدفاع عن أراضي مملكته ولتجسيد هذا التحالف أرسل ابنه "ماسنيسان" سنة 212ق.م على رأس جيش من النوميد لمساعدة الجيوش القرطاجية في جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية التي كانت تحارب الرومان، تحت قيادة القائد القرطاجي "صدربعل" وبعد هزيمة قرطاجة في اسبانيا حاول القائد الروماني "شيبيون" عقد تحالف مع "صفاكس"؛ لكن قرطاجة سبقته وتحالفت معه؛ فوافق مقابل غض نظرها عن الأراضي التي استولى عليها من قبل.

وفي سنة 206ق.م؛ مات الملك "غايا" بعد أن هزم أمام "صفاكس" حيث تقلصت مملكته التي أصبحت عاصمتها "زاما"، وبعد وفاته خلفه على العرش أخوه "أوزال سن" ولكنه مات في نفس السنة؛ فتولى ابنه "قابوسا" الحكم في السنة ذاتها، لكن سرعان ما ظهر صراع بينه وبين أحد أفراد الأسرة المالكة وهو "مازتول" الذي تحالف مع "صفاكس" وتمكن من التغلب على "قابوسا" وقتله –مع العلم أن قرطاجة وافقت على هذا العمل- لكنه لم يتولى السلطة وتولاها "لاكوماز" ابن "قابوسا".

جرت هذه الأحداث و"ماسنيسان" لا يزال في جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية يساعد القرطاجيين، وبعد هزيمة القرطاجيين؛ عاد "ماسنيسان" إلى بلاد المغرب حيث وجد أن قرطاجة نقدت تحالفها مع أبيه وتحالفت مع عدوه "صفاكس"؛ فطالب بحقه في العرش لكن "لاكوماز"وقف في وجهه وذلك بمساعدة "صفاكس" و "قرطاجة".

وفي سنة 205ق.م شكل "ماسنيسان" جيشا وبدأ الحرب ضد أعداءه وفي نفس الوقت اتصل الرومان (شيبيون) مرة آخرى بـ"ماسنيسان" –اتصل الرومان به أول الأمر عندما كان بأيبيريا بعد هزيمة القرطاجيين-وعرضوا عليه التحالف، وفي سنة 204ق.م نزلت الجيوش الرومانية على السواحل الإفريقية وتحالفت مع الملك البربري؛ الذي كان النصر حليفه سنة 203ق.م حيث تمكن من القضاء على "صفاكس" بعد معركة "زاما" سنة 202ق.م.

بعد عودة "ماسنيسان"إلى"سيرتا"والتي اتخذها عاصمة لمملكته من جديد، عمل على تركيز سلطته داخل بلاد المغرب مما مكنه من التوسع على حساب أراضي مملكة "ماسيسيليا" وبعض الأراضي الواقعة شرق مملكة "موريتانيا"، وخلال هذه الفترة أي ما بين 203 إلى غاية 193ق.م عمل الملك البربري على تشكيل دولة مركزية قوية قائمة على نمط اقتصادي جديد قائم على أساس الزراعة والاستقرار.

وفي سنة 193ق.م؛ كان أول صدام بين قرطاجة وماسنيسان، الذي عمل على تتبع أحد المتمردين إلى داخل الأراضي القرطاجية (خليج سرت الصغير)، بعد أن طلب ماسنيسان من قرطاجة الحق لمتابعته داخل أراضيها؛ لكن هذه الأخيرة رفضت طلبه، فقام الملك البربري بدخول المنطقة عنوة والقضاء على عدوه واحتلال المنطقة التي رفض الخروج منها، وأمام هذا الوضع قامت قرطاجة بإبلاغ روما وطلبت منها التدخل في الموضوع؛ لكن هذه الأخيرة ساندت حليفها.

وبعد سنة174-173ق.م قام ماسنيسان؛ بغزو أراضي قرطاجية جديدة وطرد القرطاجيين منها، وبعد هذا التوسع بدأت روما تتخوف من توسعات حليفها –كان يقول إفريقيا للأفارقة– الذي اتبع أسلوبان من أجل القضاء على قرطاجة؛ فالأسلوب الأول تمثل في التوسع والسيطرة على الأراضي القرطاجية بعد طرد سكانها، والثاني تمثل في تكوين حزب موالي له داخل قرطاجة نفسها.

وهذا الأمر أقلق قرطاجة؛ لدى عملت على مقاومة "ماسنيسان" مستغلة في ذلك انشغال روما بحروبها داخل مقدونيا وشبه الجزيرة الأيبيرية ما بين 153-152 ق.م، فاستعد هذا الأخير للحرب وحقق في سنة 150ق.م نصرا نهائيا على القرطاجيين، وبهذا تمكن الملك البربري من توحيد المملكة النوميدية التي كانت نهايتها بعد ضم روما لأراضيها أثناء توسعها الإمبراطوري سنة 33ق.م.

ج–الجيتول:

ظهر جنوب هذه الممالك جنس قوي من قبائل الجيتول المغرقة في البداوة ويبدوا أن أساس هذا الحلف القبلي كان عملا لقبيلة واحدة ثم توسع ليشمل قبائل أخرى، بسبب اشتراكها في طبيعة الحياة، والملاحظ أن هذا الحلف لم يسعى إلى تأسيس مملكة تجمعه لغلبة طابع البداوة عليهم، فقد كانت منازلها المنطقة الجنوبية الشاسعة الممتدة من أقصى شرقي ليبيا إلى المحيط الغربي وكان من أشهر فروعها قبيلة "الأوتولوليس" جنوب البلاد الموريتانية.

الخاتمة:

وخلاصة القول فإن هذه المماليك البربرية عرفت حروب كثيرة؛ حروبا محلية أتت في طريق التوسع الذي رسمه لها ملوكها الأقوياء وفي طريق نزاعاتها القبلية المتجددة؛ لكن مع هذا لم يكن تاريخها بتلك الظلامية التي حاول المؤرخون وصفها به، فقد كانت ممالك ناشئة في وسط قبلي صعب وحول أعداء وأطماع كثيرة، فهي وإن عرفت حروبا في بعض أوقاتها فقد عرفت رخاء وتحضرا وأمنا في بعضها الأخر؛ فهي لا تخرج عن مشابهة أمثالها من الممالك في أثناء التكوين.